العنوان الثاني عشر

أزمة المصطلح

يحسن أن نُتبع الحديثَ عن الوضوح ، حديثاً موجزاً عن المصطلحات ، فإن لمعانيها ، ودلالاتها أثراً في وضوح المعالم ، وتحقيق المطلوب ، واجتناب التنازع ، وبالتالي تحقيق الجودة.

حين يقرأ بعض مَنْ له عناية بالجودة ، والاعتماد الأكاديمي ، شيئاً مما كُتب بشأنهما ، يواجه بمصطلحات متعددة ، مثل التغذية الراجعة ، والمخرجات ، والمدخلات ، والاعتماد البرامجي والمؤسسي والإطار المفاهيمي.

قد تبعث هذه المصطلحات ، وأمثالها في بعض النفوس ، شيئاً من النفور ، وقد تؤدي إلى الشعور بأن الموضوع غامض ، مستور.

obeikandi.com

نصرف بعض الناس عن الجودة ، التي نحن بصدد الحديث عنها ، بسبب مصطلـ
غامضة ، وقد عبَّر عن هذا الشعور ، شاعر حين قال :

ما زال إنشاؤهم للشعر يعجبني   حتى تعاطوا كلام الزنج ، والروم

لقد نبَّه شاعر آخر إلى أهمية حسن اختيار العبارات وأثر هذا في الإقبال
لشيء ، أو الإعراض عنه ، فقال في شعر طريف :

تقول هذا جناء النحل تمدحه   وإن تشأ قلت ذا قيءُ الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزت وصفهما   والحق قد يعتريه سوء تعبير

ليس يخفى أن في تراثنا صفحات ، زاخرةً بالدعوة إلى حُسن اختيار العبار
التأكيد على أهمية صياغة المصطلحات ، بيد أني لا أود أن تأخذ هذه القضية ا
كبر من حجمها ، كما أني لا استحسن تجاهلها ، بحجة أنها مسألة شكلية.

إن السعي إلى تحقيق الجودة ، ينبغي أن يسبقه نشر ثقافة الجودة ، بغية مـ
جميع منسوبي المؤسسة فيها ، إذ إن من أكبر معوقات الجودة ، أن تبقى محصو
ريق الجودة فقط.

opeikandi.com

يسهم في تحقيق هذا الهدف، الكبير وضوحُ المصطلحات، حتى لا تبقى للنخبة، أو لفريق الجودة فقط، وكأنها مصطلحات طبية أو هندسية، إن الوضوح ينقل من الظلمة، إلى النور، ويحول دون ضياع الوقت، والانشغال بالمناكفات.

يحضرني في هذا المقام، ما حصل بين أبي علي، الفارسي اللغوي المشهور، وغلامه، فقد كان الفارسي مغرماً بالعبارات الغريبة، وكان هذا المسلك، يزعج الغلام.

حدث مرةً أن قال الفارسي لغلامه اسكعت العتاريس؟ فلم يفهم الغلام كالعادة، لكنه قال لشيخه فوراً زقفيلم، وهي كلمة صنعها الغلام في تلك اللحظة، ولم يكن قد سمع بها الفارسي، بالطبع.

فتعجب الفارسي، وقال لغلامه ويلك، ماذا تقصد بزقفيلم؟ قال له الغلام أنت ماذا تقصد بقولك اسكعت العتاريس ؟ قال أقصد هل صاحت الديكة. فقال الغلام، وأنا أقصد لا.

تنبَّه أبو علي الفارسي إلى مسلكه مع غلامه، وغيَّر من أسلوبه، بعد أن وصل معه إلى طريق، مسدود، وأدرك سلبية هذا التصرف.

وليس يبعد عن هذا المسلك التوسع الذي يرى أحياناً في استعمال المصطلحات الأجنبية في المحاضرات واللقاءات الخاصة بالجودة والاعتماد الأكاديمي، حتى ليخيل للحضور أن هذا المشروع برمته مستورد، وهذا الشعور قد يبعث على النفور كما أسلفنا، وهو ما ينبغي تجنبه بخاصة في مرحلة التعريف والتثقيف.

obeikandi.com

عض من تعامل مع كتابات الغرب، في الجودة والاعتماد الأكاديمي، وقاموا بنقل لمصطلحات، نقلاً حرفياً، مع قلة بضاعتهم في المخزون اللغوي العربي، أحيان عدم اهتمامهم بهذه القضية أصلاً.

مثل كلمة (PLAY)، فإنها تعني عند أهلها يُمارس، ويُؤدي، ويلعب، نها بعضهم المعنى الأخير، فصاروا يقولون تلعب الجامعات دوراً، ويلعب الأ وراً وتلعب الدولة دوراً في نشر الجودة، وأحياناً يقولون يلعب الإسلام دوراً، عبيرات لا تليق، وعلى هذا قس ولا حرج، واسمع ما شئت، من هرج ومرج.

إن الجودة تحتاج إلى حشد جماهيري داخل المؤسسة، وإلى حصول قناعة لدى جميع منسوبيها، ومفتاح هذا كله الوضوح، ثم الوضوح.

أحسب أن اللغة العربية غنية بالمفردات، ذات الدلالات الواسعة، التي يمك ستوعب هذه المعاني، الواردة في الدراسات الغربية، والتي لا يمكن تجاهلها حيث هي معانٍ صحيحة، مفيدة في بابها.

لقد قال الشاعر الروماني، أوفيد إن عدوى العقل المشوش، تنعكس لجسم، كله وتفرض نفسها، على كل شيء، والمصطلح الغامض، المختل دلوله، يؤدي إلى السلبية، نفسها، ويشوش على المنهجية المتبعة في العمل.

تمامُ العمى طولُ
السكوتِ على الجهلِ.
"بشار"

إن الوضوح مفتاح التجويد، فإن كان المصطلح غير مفهوم، أو محل خلاف، كان التواصل ضعيفاً، لأن التواصل إنما يتحقق بالتخاطب بمصطلحات، واضحة الدلالة لدى الطرفين، متفق عليها.

لقد أدركت الدول، والمنظمات الدولية أهمية دلالة المصطلحات وفهمها، حتى إنها عقدت اجتماعات خاصة من أجل توحيد هذه المصطلحات، وتحديد دلالاتها، تجنباً لأي خلاف، والأمر ما قاله الغزالي، صاحب الإحياء يكون الاختلاف، والإنكار، حين يكون التفاوت في المعيار.

لست أزعم أن مسألةً كهذه يمكن حسمها بسهولة، فإن لها أبعاداً، وأبعاضاً، متعددة، وقد تتباين فيها الاجتهادات، دون الوصول إلى اتفاق ملزم، على المدى القريب.

أعرض في هذا المقام، بإيجاز إلى مصطلحي التقويم، والتقييم، وما بينهما، من اختلاف، وخلاف، من حيث القبول، والرد.

أجمعت المصادر العربية الأصلية على أن مصطلح التقويم، هو المصطلح الصحيح، فالأصل " قاوم "، ويستعمل هذا المصطلح، في الدلالة على بيان القيمة، وتحديد الوزن، وتوصيف الشيء لبيان منزلته.

جاء في الحديث الصحيح[1]، أن الصحابة الكرام، قالوا: يا رسول الله، لو قوّمت لنا، فقال: الله هو المقوِّم، وكانوا يطلبون، تحديد أسعار السلع.

يُستعمل التقويم في لسان العرب، أيضاً بمعنى الإصلاح، والتهذيب، والتعديل، قالوا قوَّم الأخلاق أصلحها، وهذَّبها، وقوَّم الرمح، أزال اعوجاجه، وقوَّم الخطأ صححه.

يبقى التعويل على السياق، في تحديد المعنى المراد من هذه اللفظة، أهو التثمين، أم التعديل؟.

بحث مجمع اللغة العربية، في القاهرة هذه القضية، في جلسته الثامنة، سنة ١٩٦٨م، وأجاز من باب التوسع، استعمال التقييم بمعنى التثمين، وبيان المنزلة، والقيمة، وبذلك فرَّق بين دلالة التقييم، بعد إجازتها، ودلالة التقويم.

يبدو أن الدراسات الغربية فرقت بينهما، في كثير من الاستعمالات، فالتقييم عندهم، (Assessment) بمعنى القياس، والتقدير، واستعملوا مصطلح التقويم (Evaluation) بمعنى التعديل.

(١) الحافظ محمد بن ماجة، *سنن ابن ماجة*، باب من كره أن يسعِّر، ص ٣١٥، دار السلام، ط٢، الرياض

بيد أن هذا ليس محل اتفاق عندهم فيما يبدو، فقد لوحظ، أنهما في الاستعمال الغربي، إذا اجتمعا افترقا، فدل كل واحد على معنى مغاير، وإذا افترقا اتفقا، فقد ثبت استعمالهما بمعنى واحد، في دراسات كثيرة.

لم يكن هذا العرض الموجز هدفاً في حد ذاته، وإنما أردت بيان أن أزمة المصطلح حاضرة، ويتعذر تجاهلها، وقد حدث أن دبَّ خلاف في ندوات عدة، بسبب تعدد وجهات النظر في دلالة المصطلحات، واستخداماتها.

لا أرى حرجاً، في ضوء ما تقدم، من استخدام المصطلحين، في مجال الحديث عن الجودة، فيطلق التقييم على وزن الواقع، وبيان مواطن الخلل فيه، وكذا مواطن القوة، ويطلق التقويم في هذا المجال على التعديل، والتصحيح، والتحسين مع بقاء مدلول الثمين أيضاً، وحبذا لو اتفق أهل الشأن على هذا، فإن المخاطبة، والمفاهمة إنما هي بالمواضعة.

التقويم في لسان العرب
التثمين، والتعديل

obeikandl.com